كتاب تحفة العجايب وطرفة الغرايب

في مكتبة المدرسة العثمانية بحلب كتاب بهذا العنوان ذكر في فهرس المكتبة بين كتب فن الطب والتشريح برقم ١١٨٣ . اطلعت عليه فوجدت مكتوباً في صدره : كتاب تحفة العجايب وطرفة الغرايب تأليف الشيخ الامام العلامة ابن الأثير تغمده الله برحمته بمنه وكرمه . وهناك ختم مربع مستطيل عليه اسم عثمان باشا بن عبد الرحمن باشا الديوركلي باني الجامع وواقف الكتاب .

أنقل من الكتاب ، للتعريف به ، ما يلي بحرفه :

بسم الله الرحمن الرحيم . رب يسر يا كريم .

المقالة الأولى في الأجسام المتولدة من المعادن وتشتمل على ثلثة أبواب وفصول .

الباب الأول في المعادن . المعادن هي أجسام متولدة من الأبخرة والأدخنة تحت الأرض اذا اختلطت على ضروب من الاختلاطات مختلفة اللون والكيف . وهي اما قوية التركيب واما ان تكون منطرقة او لم تكن منطرقة . فهي الاجساد السبعة وهي الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والخارصيني والاسرب . وان كانت غير منطرقة فاما ان تكون في غاية اللين كالزئبق ، واما ان تكون في غاية الصلابة ، فاما ان تنحل بماء الرطوبات وهي الاجسام الملحية كالزاج والنوشادر . واما ان تنحلل وهي الأجسام الدهنية كالزرنيخ والكبريت . فاما الأجسام السبعة فتتولد من أخلاط الزئبق والكبريت على اختلاف في الكم والكيف ... الخ

وقال في الباب الثاني ، وهو في النبات : قال المسعودي ان آدم عليه السلام لما هبط من الجنة خرج ومعه اربعون قضيباً مودعة أصناف الثمر . منها عشرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لها قشر . وهي الجوز واللوز والجلوز والفستق والبلوط والشاهبلوط والصنوبر والنارنج والرمان والخشخاش . ومنها عشرة لثمرها نوى ... الخ .

الباب الثالث في أصناف الحيوانات وعجايبها . النوع الأول في حقيقة الانسان .. الخ . يأتي بعد هذا الباب فصل في حيوانات عجيبة الأشكال . وقد قسم الفصل الى ثلاثة اقسام . جاء في القسم الثالث ذكر حيوانات غريبة الأمر ، جاء فيه قوله : منها ما أخبر بعض الفقهاء بالموصل انه شاهد في الأكراد وهم جيل يسكنون بعض بلاد الموصل انساناً طوله تسعة اذرع وهو صبي ما بلغ الحلم . وكان يأخذ بيد الرجل القوي ويرميه خلف ظهره . اراد صاحب الموصل ان يستخدمه فذكروا ان في عقله خبلاً لا يصلح لذلك .

وجاء في آخر الكتاب : ما ذكره ابو الريحان الخوارزمي ان والي سبيجاب أهدى الى نوح بن منصور السامانى فرساً له قرنان ظاهران وثعلباً له جناحان من ريش اذا قرب الانسان منه نشرهما ، واذا بعد ألصقهما بالجنب . ثم قال ربما يتعجب الناس من الثعلب الطيار ، فان الثعالب كانت طيارة في عهد الكيانيين . ومنها دجاجة برأسين ودجاجة بأربعة ارجل . والله أعلم .

الكتاب غفل من التاريخ وفيه أغلاط من النساخ لا تخفى على القارئ . وفي الصفحة الأخيرة جاءت كلمة الكيانيين مهملة . وليس في آخر الكتاب اسم الناسخ .

ان قول المؤلف في أول الكتاب : « المقالة الأولى في الأجسام المتولدة من المعادن » يتبادر منها الى الذهن ان الكتاب يتركب من جزئين او اكثر وان المجلدة الحلبية ليست الا الجزء الأول منه ، لأنه لم يرد فيها ذكر لمقالة ثانية . ويعظم هذا الوهم عند النظر في كشف الظنون فاننا نجد ان الحاج خليفة قال عن هذا الكتاب : « تحفة العجايب وطرفة الغرايب لابن اثير الجزري . جمعها من كتب عديدة . اولها الحمد لله رب الأرباب ومنشئ السحاب الخ ورتب على اربع مقالات » . من هنا حصل عندي الظن بان الكتاب الذي اطلعت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليه في جامع العثمانية بحلب لم يكن سوى الجزء الأول من التحفة وأني لم ألاحظ ذلك وان حافظ الكتب لم ينبهني ، لضيق الوقت ، الى ان الكتاب له اجزاء اخرى . فكتبت الى صديقي المحترم الشيخ محمد راغب الطباخ عضو المجمع العلمي العربي وبينت له الأمر ورجوت منه ان يراجع الكتاب ويكتب لي عن حقيقة الحال . فجاءني منه الجواب يقول فيه : لا يوجد في المكتبة سوى الجزء الذي رأيته وهو جميع الكتاب . والدليل على ذلك قول المؤلف في ورقة قبل نهايته « فصل في حيوانات عجيبة الأشكال وبه نختم الكتاب ان شاء الله تعالى» .

وعلمت بوجود نسخة من هذا الكتاب في خزانة كتب الأزهر بالقاهرة ، فرجوت من صديقي السيد برهان الدين الداغستاني ان يطلع عليه ويخبرني باسم مؤلفه . فكتب لي يقول : بعد بحث طويل شاق في فهارس قديمة غير منظمة ولا مرتبة عثرت على قطعة من الكتاب في ٦٨ ورقة مكتوبة بخط ردي، جداً ناقصة من الاخر وليس عليها اسم المؤلف لا على ظهرها ولا في أولها . لكن كاتب الفهارس كتب في باب الملاحظات مقابل اسم هذه القطعة هذه العبارة « في كشف الظنون انه لابن الأثير الجزري » .

ثم اني بعد التحري علمت من الفهرس الذى نظمه دي سلان بوجود نسخة من تحفة العجايب في خزانة الكتب الأهلية بباريس تحت الرقم ٢١٧٢ في الفهرس المذكور . وفهمت من الشرح المذكور هناك ان الكتاب مرتب على اربع مقالات كما قال الحاج خليفة ، وان المقالة الأولى تبحث عن السماء والأرض ، والثانية عن عجايب الدنيا والزمان والليالي والأنهار ، والثالثة عن عجايب البحار والأنهر والعيون والجبال ، والرابعة عن المعادن والنبات والحيوان . فتكون مخطوطة حلب المقالة الرابعة من الكتاب فقط .

نأتي الآن الى البحث عن مؤلف الكتاب :

ان النسخة الحلبية لم تذكر اسم المؤلف ولا نسبته الى بلد ، بل اكتفت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بتسميته بالشيخ الامام العلامة ابن الأثير . ومخطوطة الأزهر لا شيء فيها عن المؤلف . وفي كشف الظنون ان الكتاب لابن الأثير الجزري . ومثله في نسخة باريس . وانفرد جورجي زيدان فصرح في كتابه تاريخ الآداب العربية بأنه ا ز الدين ابن الأثير .

من المعلوم ان ابناء الأثير المشهورين ثلاثة . مجد الدين ابو السعادات المبارك المحدث المتوفى سنة ٦٠٦ ، وعز الدين ابو الحسن علي المؤرخ المتوفى سنة ٦٣٠ ، وضياء الدين ابو الفتح نصر الله اللغوي الاديب ، وزير الملك الأفضل الأيوبي ، المتوفى سنة ٦٣٧ . فمن هو مؤلف الكتاب من أبناء الأثير هؤلاء ان صح ان احدهم قد ألفه ؟

توفي ابن خلكان سنة ٦٨١ عن ٧٣ سنة . فقد ولد بعد وفاة مجد الدين بسنتين فكان زمانه قريباً جداً من زمانه وعاصر اخويه عز الدين وضياء الدين . وهو الذي يقول في ترجمة ضياء الدين : « ولقد ترددت الى الموصل من اربل اكثر من عشر مرات » . وقال في ترجمة عز الدين : « لما وصلت حلب في أواخر سنة ٦٢٦ كان عز الدين المذكور مقيماً بها في صورة الضيف عند الطواشي شهاب الدين طغريل الخادم .. وكان كثير الاقبال عليه ... فاجتمعت به فوجدته رجلاً مكحلاً في الفضايل .. فلازمت التردد اليه ... ثم عاد الى حلب في أثناء سنة ٦٢٨ فجريت معه على عادة التردد والملازمة ... » فلو كانت تحفة العجايب وطرفة الغرايب لعز الدين أو لأحد اخويه لما فاته ذكرها .

نشأ ابناء الأثير الشيبانيون في جزيرة ابن عمر وانتقلوا الى الموصل وتربوا فيها وسكنوها ، فهم أدرى الناس بهذين البلدين وبما جاورهما من البلاد والاكراد . فلا ينتظر ان يأتي واحد منهم بالعبارة التي نقلناها آنفاً وهي : (منها ما اخبر بعض الفقهاء بالموصل انه شاهد في الأكراد ، وهم جيل يسكنون بعض بلاد الموصل ، انساناً طوله تسعة اذرع ... اراد صاحب الموصل ان يستخدمه . الخ) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهذا كلام رجل لم ير الموصل ولا عرف شيئاً عنها ولا عن الأكراد ومواطنهم ولا اسم صاحب الموصل يومذاك ولا اسم الفقيه الذي شاهد الكردي المفرط الطول ولا عيّن موطن الكردي بالتحديد .

عندي ان نسبة الحاج خليفة هذا الكتاب لابن الأثير الجزري ناشئة من شهرة أبناء الأثير الجزريين ، ونسبة جورجي زيدان اياه الى عز الدين ناشئة من اشتهار عز الدين اكثر من اخويه بكتابه الكامل في التاريخ . وكل ذلك تعسف من غير دليل .

هذا وان من عرفوا بابن الأثير كثيرون . منهم :

مجد الدين محمد بن الأثير . ورد ذكره كراراً في كتاب الحوادث الجامعة لابن الفوطي في ص ٣٣٣ فما بعدها . وجاء ذكر قتله فيه في ص ٤٤٨ .

وجاء في ص ٤٩٠ في الكتاب المذكور اعلاه في حوادث سنة ٦٩٥ ذكر وفاة اثير الدين التستري (؟) مشرف العراق ، وقيل هناك انه ابن عم مجد الدين بن الأثير السالف الذكر .

وورد في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لتقي الدين احمد بن علي المقريزي المطبوع سنة ١٩٣٩ م ذكر عدة رجال سموا بابن الأثير .

فقد جاء في حوادث سنة ٦٨٤ قوله : بعث السلطان [قلاوون] الى سنقر الأشقر بتاج الدين احمد بن سعيد بن الأثير يلومه على مكاتبة التتار والاستنجاد بهم ويدعوه الى الحضور . فوبخه تاج الدين ولامه حتى اناب ووعده بارسال ولده . (ج ١ — ص ٧٢٨) .

وجاء ذكر احمد هذا في حوادث سنة ٦٩١ أيضاً حيث قيل : اقر السلطان في ديوان الانشاء تاج الدين احمد بن سعيد بن محمد بن الأثير التنوخي الحلبي عوضاً عن ابن عبد الظاهر (١ — ٧٧٩) لاحظ قوله التنوخي الحلبي ، وانت تعلم ان أبناء الأثير الجزريين كانوا شيبانيين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجاء في حوادث السنة عينها : ولي ديوان الانشاء عماد الدين اسماعيل بن احمد ابن سعيد بن محمد بن الأثير بعد وفاة والده ، فان والده لم يقم في كتابة السر الا نحو شهر ومات بغزة عند عوده من دمشق (١ — ٧٨١) . اني ارجح بل لا أشك في ان عماد الدين ابن الأثير الذي جاء ذكره بين شراح قصيدة ابن زبدون هو اسماعيل بن احمد هذا . ذكره جورجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية فقال : هناك ابن اثير رابع اسمه عماد الدين توفي سنة ٦٩٩

وفي حوادث سنة ٦٩٩ : رحل غازان في يوم الجمعة ثاني عشر جمادى الأولى وترك على دمشق نائبه قطلوشاه نازلاً بالقصر واخذ وزيره من أعيان دمشق ... وشرف الدين محمد بن شمس الدين سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير . (ص ٨٩٥) . وذكر شرف الدين هذا في حوادث سنة ٧٠١ حيث قيل : وفيها قدم البريد بحضور علاء الدين بن شرف الدين محمد القلانسي الى دمشق وصحبته شرف الدين ... بن الأثير في تاسع عشر جمادى الأولى من بلاد الططر ، وكانا قد اخذا لما دخل الططر الى بلاد الشام ، ففرا ولقيا مشقة زائدة في طريقهما (السلوك أيضاً ٩٢٢) .

وفي حوادث سنة ٧٠١ ذكر موت شمس الدين سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير بدمشق وكان يكتب الانشاء بها (ص ٩٢٧) . (وهو والد شرف الدين محمد المذكور أعلاه) .

وجاء في ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي تأليف تلميذه الحافظ ابن ابي المحاسن الحسيني الدمشقي ص ١٥ قوله : ومات بمصر الواعظ شمس الدين حسن بن اسد ابن مبارك بن الأثير . سمع الحافظ المنذري والنجيب .

فمن هو مؤلف هذا الكتاب من جميع هؤلاء الذين عرف كل واحد منهم بابن الأثير ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اني بعد ان وجدت ابن خلكان لم يذكر هذا الكتاب في تراجم ابناء الأثير الجزريين وكان أعرف الناس بهم وبتآليفهم وفندت نسبة الكتاب لعز الدين ، أكاد أجزم بان مؤلف كتاب تحفة العجايب وطرفة الغرايب موضوع البحث هو عماد الدين اسماعيل بن احمد بن سعيد بن محمد بن الأثير التنوخي الحلبي شارح قصيدة ابن زيدون المذكور آنفاً لاشتغاله بالتأليف ولكوني لم أجد الى الآن تأليفاً لأحد من أفراد اسرته او غيرهم ممن سموا بابن الأثير . وأرى ان عدم ذكر اسمه في مخطوطة حلب سببه شهرة له كانت عظيمة يومذاك في القطر الشامي فكان يكفي ان يقال ان الكتاب لابن الأثير خاصةً بعد توليه ديوان الانشاء .

ومن المحتمل جداً ان يكون في متن الكتاب ما يستدل به على صحة ما ذهبت اليه من نسبة التأليف الى عماد الدين اسماعيل .

(الموصل) الدكتور داود الجلبي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net